بائع الخضار لا يعرف السبب

• عـــدنيـــة شـــبلي*

أخيرًا.

لقد فعلتْ كلَّ شيء، من الكحل إلى طلاء الحذاء، مرتيْن. ولبستْ تنورةً قصيرةً.

وشعرتْ أنّها متناسقة للمرّة الأولى في حياتها.

كانت تتأهّب للذهاب إلى حفلةٍ سيَحْضرها هو.

◆ ◆ ◆

منذ أن عرفتْ بهذه الحفلة لم يتوقفْ ذهنُها لحظةً عن نَظْم خُطَبٍ رنّانة ستلقيها كلَّها أمامه حين تَنْفرد به: عن مدى حبّها له؛ وكم هو رائع؛ وكيف أنّ كلَّ لحظةٍ إلى جانبه هي كلُّ حياتها؛ وأنّ موجةً بطيئةً من الحرّ تَعْلوها عندما تراه من خلف زجاج مكتبه، فلا تعود تعرف إلى أين تعود أو ماذا تشتري. غير أنّ بائع الخضار ما كان ليَفْهمَ يومًا السببَ خلف جمودها الطويل بعينيْن شاردتَيْن أمام أكوام الخضراوات.

لكنْ يجب عليها ألاّ تحبه إلى هذه الدرجة.

إنّها لا تعرفه. كلُّ ما بينهما هو كلماتٌ عشوائيّة قبل اجتماعٍ أو بعده، لا أكثر. فعلى أيّ أساس صارت تحبّه؟

كلُّ كلمة يقولها، من باب عدم القصد في أغلب الأحيان، صارت مقدّسة. ما يكاد يَذْكر اسمَ كتاب، حتى تجد نفسَها أمام صندوق البيع تُخْرج من محفظتها بعضَ النقود غير المطويّة تَدْفعها باتّجاه البائع، في حين يَسْقط أغلبُها على الأرض، فَتَنْزل تجمعها، بينما يقف هو بتسامحٍ ينتظرها من فوق، مع كتابٍ موضوعٍ في كيس بلاستيكيٍّ عليه شعارُ المكتبة.

هذا كلُّ ما كان لها من الحبّ.

لكنّها تَشْعر بأنّه يَسْتلطفها. غير أنّه يستلطف زميلتَها الجديدةَ في العمل أيضًا. فهذه المبجّلة أصبحتْ تحبّه هي الأخرى، رغم أنّ لديها مَنْ تحب، فتزاحمها على مثل هذه الفرصة الهزيلة المعدمة. تفعل كلَّ شيء، ومنذ اليوم الأول: عينين وملابس، دلعًا ودعواتٍ، وتأففاتٍ من حين إلى آخر تعبّر فيها عن مدى ضجرها من صاحبها.

عينان. عينان. إنّ أقصى حبّ يَذْهب سدًى أمام عينيْن دلعتَيْن يحيطهما كحلٌ أزرق.

ليت زميلَتها تموت، مع أنّ ذلك حرام.

قرّرتْ: إذا كان لباسُ الحرب كحلاً وتنورةً، فلتضعْهما ولتَخُضْها.

◆ ◆ ◆

أقفلتْ بابَ البيت وراحت تتساءل مباشرةً إنْ كانت أقفلتْ باب البيت خلفها. غير أنّ قلبها كان يَعْدو أمامها فوق الدرج، فاستسلمتْ لعَدْوه، وليسرقوا البيت!

خَطَتْ فوق الشارع بحذائها ذي الكعب الشاهق، فأوشكَتْ لشدّة ارتفاع صوته أن تعتذر لكلّ تلك الوجوه التي استدارت إليها عمّا يَصْدر منها من ضجيج. «أرجو المعذرة، لم أعرف أنّ صوته سيكون عاليًا إلى هذه الدرجة.»

من الطبيعيّ أن تبقى لطيفةً تجاه زميلتها التي أصبحتْ متوحِّشةً تجاهها. تضع له الفلفلَ في صحنه قبل أن يَلْحظ هو مجرَّدَ وصوله، ذلك لأنّها تعرف أنّه يحب الفلفل؛ تقولُ ذلك بعينيْن ستُقلبان إلى الوراء.

من أين ظهرتْ هذه؟! إنّه لا حاجة لهم بها في مكان العمل. كلَّ اليوم لا تَفْعل شيئًا سوى ترديد اسمه في ألف مناسبة مختلفة: «كما قال، كلون قميصه، عندما جاء من...، في فترة ما قبل دعوته إيّاها...»؛ كما لو أنّه نقطةُ الصفر التي تَنْطلق منها كلُّ الأحداث في العالم، ومن ضِمْنها الفولُ المدمَّس.

---

* ـ روائيّة وقصّاصة فلسطينيّة شابّة.

فجأةً انتابها إحساسٌ شديدٌ بالخجل. ما الذي تفعله!

ودّت لو تعود أدراجَها، تزيل كلَّ هذا، تستحمّ. هذه قصة أخرى بلا أمل، وستَنْتهي على الأغلب دون أن يَعْرف هو نفسُه بها.

لقد استغرقها الحبُّ السابقُ أربعةَ أعوام كي تَعْترف بحبِّها للذي عشقته كلَّ تلك النهارات والليالي والأحلام. وعندما أخبرتْه تفاجأ، قال إنّه متفاجئ: على أيّة حال زواجُه قريبٌ، وسيكون سعيدًا لو رآها بين الحضور.

كأنّما لسانُها لا يستطيع أن يَحْمل إلى الخارج لفظة «أحبّك.» ولكنّها تتحدّث، وتتحدّث جيّدًا، عن ضرورة تغيير سياسة الشركة تجاه وسائل الإعلام، التي يجب كسبُها إلى صفّهم. على الشركة ترتيبُ مؤتمر صحفيّ، يحوّل في نهايته إلى حفلِ تعارفٍ بينه، كمدير للشركة، وبينهم كصحافيِّين.

هذا كلّ ما يمكنها أن تَعْترف له به: أهميّة الصحافة ومساهمتُها في الحملات الدعائيّة.

بل تستطيع أن تنظِّم أيَّ حملة دعائيّة لأيّ منتوج، كنكّاشات أسنان مغلّفة بورق مثلاً، ومن ثم إقناع غيرِ المستهلكين باستهلاكها، وإقناع المستهلكين بالاستمرار في استهلاكها. لكنّها لا تستطيع إقناعَه بها هي، وبحبِّها له.

زميلتُها ـ وليست المقارنة هي القصد ـ لم تأتِ منذ بدء عملها في الشركة بفكرة واحدة.

ربما قبل قدومها كانت الحياةُ أفضلَ قليلاً: قليلاً فقط.

◆ ◆ ◆

من بعيد لاحت أضواءُ الطابق الثاني للعمارة حيث الحفلة. وفي اللحظة المناسبة انتبهتْ إلى سيّارة الشركة التي اعترضت الطريق. الكعب. أين الحذاء؟ بحثتْ عن قدمها فيه وداست على الفرامل. بهدوء.

هناك تبادلُ إطلاق نار. لا تستطيع دخولَ المنطقة، ولا بدّ أنّ قذائف المدفعيّة ستبدأ بالقصف خلال دقائق. ماذا؟

كانت الأجواء العامة في البلد، هي الأُخرى، تغازِلُ منذ وقتٍ فكرةَ الحرب.

رأت بوضوح أضواءَ الشقة التي كانت تجري فيها الحفلةُ في تلك الأثناء، خافتةً أرجوانيّةً. بل بدتْ من نوافذها بعضُ الخيالات، تروح ثم تجيء. فَتحتْ نافذةَ السيارة ورفعتْ يدها باتجاهها، محاولةً أن تُقْنع رجالَ الشرطة بضرورة وصولها إلى تلك الأضواء فقط. هناك. ثم أسرعتْ تُنْزلها لحظةَ انتبهتْ إلى الطلاء فوق أظافرها. يا لفَضيحة اللون!

ردّوا بدفء ولطف:

ـ مستحيل.

وهل يُعْقل أن تَشْرح لرجال الشرطة اللطفاء كيف أنّهم يَقْلبون إمكانيّتَها الوحيدة إلى مستحيلٍ إلى الأبد؟ وأنّها لم تَعْترف له حتى الآن بأنّها تحبّه، ولكنّها تحبّه بشدّة وتنوي أن تَفْعل ذلك هذه الليلة، وإلاّ فسيَبْقى الأمرُ سواءً بالنسبة إليه كما هو بالنسبة إلى زجاج مكتبه الذي يَظْهر من خلفه؟! أمْ تَشْرح لهم أنّها إنْ لم تتمكّن من العبور، فستعود في اليوم التالي إلى مكتبها، إلى زميلتها المتوحّشة، وإليه، مديرِها، حيث تتابع حركاتِه في صمتٍ يزيد الحسرة؟!

قالت بصوت يوشك على البكاء:

ـ يعطيكم العافية، شباب.

القدس